BALAGH
Journal of Islamic and Humanities Studies
Vol 3 / No 1 – Jun 1444 / 2023
ISSN: 2791-6561
Received: 15.02.2023 | Accepted: 29.03.2023 | DOI: 10.5281/zenodo.7679076 0000-0003-3750-1194

نحو علم للشمائل النبوية

دراسة في المبادئ العشرة للعلم وتاريخه وأضواء على الترمذي وشمائله

Towards A Science of The Ethics of The Prophet A Study in The Ten Principles of Science The History in The Light of Tarmazi And His Ethics

***وصفي عاشور أبو زيد**

Vasfi ABUZID

الملخص:

كتب العلماء كثيرا عن الشمائل النبوية، وهو ما يتعلق بصفات النبي صلى الله عليه وسلم الخَلقية والخُلُقية، وهذه الكتب قديمة وحديثة ومعاصرة، بما يجعل هذا التصنيف علما مستقلا يمكن أن نتحدث عنه من خلال المبادئ العشرة للعلوم، وهي التعريف، والموضوع، والثمرات، وفضله، ونسبته، والواضع له، واسمه، واستمداده، وحكم الشريعة في تعلمه، ومسائله، وهذا من علامات الاستقلال.

وقد ذكر البحث ست فوائد لدراسة الشمائل النبوية، تدور حول ازدياد محبة النبي صلى الله عليه وسلم، والتمكن من اتباعه، وأن دراستها ستزيدنا إيمانا في القلب ورقة في الطبع، وأن نزداد شكرا لله تعالى أن أرسل لنا هذا الرسول العظيم، والاطلاع على الجهد الكبير الذي بذله العلماء في هذا الموضوع.

* أستاذ مقاصد الشريعة الإسلامية – جامعة ابن خلدون ورئيس مركز الشهود الحضاري للدراسات الشرعية والمستقبلية – إسطنبول. wasfy75@gmail.com Orcid: 0000-0003-3750-1194

كما أن الإمام الترمذي له جهد رائد في هذا الموضوع من خلال كتابه عن الشمائل النبوية، وهو كتاب مبارك ومهم، ومن هنا فإن هذا البحث يسعى إلى أن يجعل الشمائل النبوية علما قائما بذاته، ومن علامات الاستقلال أن تكون له المبادئ العشرة التي ذكرها العلماء للعلوم، وهذه هي مادة البحث.

الكلمات الرئيسية: الشمائل النبوية – المبادئ العشرة – الإمام الترمذي – القرآن والسنة.

Abstract:

Scholars have written a lot about the prophetic merits, which is related to the moral and ethical attributes of the Prophet, may God bless him and grant him peace, and these books are ancient, modern and contemporary, which makes this classification an independent science that we can talk about through the ten principles of science, which are definition, subject, fruits, and his virtue, And his lineage, and the one who established him, and his name, and his derives, and the rule of Sharia in his learning, and his issues, and this is one of the signs of independence.

The research mentioned six benefits of studying the prophetic virtues, revolving around the increase in the love of the Prophet, may God's prayers and peace be upon him, and the ability to follow him, and that studying them will increase us in faith in the heart and gentleness in nature, and that we increase thanks to God Almighty for sending us this great Messenger, and seeing the great effort that he made Scientists have done it on this subject.

Also, Imam Al-Tirmidhi has a pioneering effort in this subject through his book on the prophetic virtues, which is a blessed and important book. This is the subject of research.

Key Words: Prophetic virtues - the ten principles - Imam AlTirmidhi - Quran and Sunnah.

خلفية البحث:

الشمائل النبوية هي التي يكون موضوع الحديث فيها رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم خَلقاً وخُلقاً، سيرةً ومسيرة، آداباً وأخلاقاً، وكل ما يتعلق بالنّبي عليه الصّلاة والسّلام، ونحنُ في هذا العصر، وفي هذه الظروف التي يُسَاءُ فيها إلى النّبي عليه الصّلاة والسّلام، وإلى رسالته وإلى المؤمنين( )، حريٌ بالمسلمين أن يجددوا إيمانهم بهذا النّبي الأمين، وأن يجدّدوا العهد والبيعة مع النّبي عليه الصّلاة والسّلام، وأن يُثبتوا للعالم حقيقةً لا ادعاءً أن المسلمين وحدهم يملكون الدّواء والعلاج لهذه البشرية كلّها، بما لديهم من مصادر غنية، ومن مرجعيّةٍ ثرية تتمثل في القرآن الكريم وفي السنة النّبوية المشرفة، وأنّ هذا النّبي شهد له الأعداء قبل الأصدقاء، هذا النّبي قد بلغ من الكمال البشري مالم يبلغه بشر.

ولقد كتب العلماء قديما وحديثا عن الشمائل النبوية، وهذه الكتابات يمكنه أن تشكل فنا علميا مستقلا بذاته، من خلال تناول المبادئ العشرة التي ذكرها العلماء للعلوم، وهذا ما يسعى البحث لتناوله وبيانه.

منهج البحث:

اعتمد البحث المنهج الاستقرائي الذي تتبع من خلاله ما كتب في موضوعه، كما اعتمد المنهج التحليلي الذي تناول من خلاله كتاب الشمائل النبوية للإمام الترمذي، كما استخدم المنهج التاريخي الذي أرخ به للكتب التي كتبت في هذا العلم.

الدراسات السابقة:

لا نعرف أحدا تناول الشمائل النبوية بوصفها علما مستقلا أو فنا قائما بذاته من فنون السنة النبوية أو السيرة المحمدية.

خطة البحث:

اقتضت طبيعته أن يأتي في أربعة مباحث على النجو الآتي:

المبحث الأول: علم الشمائل النبوية في ضوء المبادئ العشرة.

المبحث الثاني: الشمائل النبوية في القرآن الكريم والسنة النبوية.

المبحث الثالث: تأريخ علم الشّمائل النّبوية ومصنفاته.

المبحث الرابع: كتاب "الشّمائل المحمدية والخصائص المصطفوية" ومؤلفه.

وهو ما سنتناوله على النحو الآتي، وبالله التوفيق.

علم الشمائل النبوية في ضوء المبادئ العشرة:

إذا أردنا أن نتحدث عن الشمائل: الشّمائلُ عِلمٌ من العلوم، كان العلماء يأتون بالشمائل بعد الانتهاء من السيرة النبوية بأحداثها وبمسيرتها، والآن أو بعد أن كانت جزءاً من السيرة النبوية أصبحت علماً مستقلاً ضمن علوم السنّة والحديث الشريف، ونحن سنتناوَلُ الشّمائل من خلال مقدّمة قبل أن نشرع في المقصود بإذن الله تعالى لأهمية هذه المقدمة؛ كمقدمةٍ ضرورية، استكشافية تأصيليّة لما يسمى بالشّمائل النّبوية، نحن كما تعوّدنا في شرح العلوم نعتمد قول العلامة الصبّان الذي صاغ مبادئ العلوم في عشرة مبادئ حيثُ قال:

إن مبادئ كلّ علـــم عشرة الحـــدّ والموضـــــوع ثم الثمـــرة
ونسبـــة وفضله و الواضـــع والاسم الاستمداد حكم الشارع
مسائلٌ والبعضُ بالبعض اكتفى ومَن درى الجميـــع حاز الشّرفا

الشمائل كما قلنا علمٌ من علوم السيرة، ومن علوم السنة النبوية في وقتٍ واحد، وإذا بدأنا بالتعريف طبقاً لأبيات العلامة الصبان:

حدُّ علم الشّمائل النبوية:

الحد: هو التعريف، وهو هنا متعلق بالشمائل النبوية، والشمائل: جمع مفردها شميلة، والشميلة هي الخصلة أو الخصيصة أو الطّبع أو العلامة التي يتميز بها المشمول عن غيره، والمقصود هنا المشمول هنا هو: النّبي محمدٌ صلى الله عليه وسلّم، فالشّمائل النّبوية هو ذلك العلم أو الفنّ في

التاريخ أو في السيرة أو في علوم السنّة، والحديث الذي يبحث في أخلاق النّبي صلى الله عليه وسلم، وفي خلقته وفي أوصافه، وفي آدابه وفي أخلاقه، وفي صفاته الخلقية، وكلّ ما يتعلق بالنّبي صلّى الله عليه وسلّم.

جاء في موسوعة الشمائل النبوية: "والشمائل النبوية: الخصال الحسنة والطبائع الجميلة التي تتعلق بصفات النبي صلى الله عليه وسلم الباطنة والظاهرة، ويدخل في شمائله عليه الصلاة والسلام جميع أحواله الحياتية من أسمائه وصفاته الجبلية وصفاته الخلقية"( ).٢

موضوع علم الشّمائل النّـبوية:

موضوع هذا العلم: هو أخلاق النّبي عليه الصّلاة والسّلام، وخِلقة النّبي عليه الصّلاة والسّلام، والآداب، وكيف كان يتعامل؟ كيف كان يعبد الله تعالى؟ كيف كان يتعامل مع نفسه؟ ومع ربه ومع الناس أجمعين؟ هذا هو موضوع علم الشمائل النّبوية.

مقاصد أو ثمرات سماع الشّمائل النّبوية:

الثمرة: ثمرة هذا العلم يعني مقاصد هذا العلم، فوائد هذا العلم، ما العوائد والفوائد والمقاصد التي تعود علينا وتتحقق لنا حينما ندرس أو نسمع عن الشمائل النبوية؟

ونحن باعتبارنا مسلمين "نشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً عبده ورسوله" والبحث في أحوال النّبي عليه الصّلاة والسّلام، وأخلاقه، التي هي جزء من الشهادة التي يدخل بها الناس الإسلام، يعني هي شطر الشّهادة، هي: شهادة التوحيد؛ تتضمن ركنين: الركن الأول: الشهادة لله بالوحدانية والألوهية والرّبوبية، والركن الثاني: الشّهادة للنّبي عليه الصّلاة والسّلام بالرّسالة، ومن مقتضى هذه الشهادة أن نبحث في سيرة هذا النّبي الذي نشهد أنه عبد الله ورسوله، ومن ذلك بيان الفوائد التي تعود علينا من دراسة شمائله وخصائصه، ومنها( ):

- الفائدة الأولى: أن نحقق في قلوبنا الشّهادة التي دخلنا بها الإسلام.

• الفائدة الثانية: أن معرفة الشمائل والخصائل المصطفوية تزيدنا محبةً للنبي عليه الصّلاة والسّلام؛ فحينما تعرف أخلاق النّبي، صفات النّبي؛ حتى جسد النّبي، وجه النّبي، رأس النّبي، عين النّبي، ذراع النّبي، قدمي النّبي، جسم النّبي، كلّ هذا يقربك من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يجعلك كأنك تراه رأي العين؛ كأنما أنت تُعايشه وتُعاصره، وتجلس بين يديه، وترى علامات وجهه عند الرّضا، عند السّرور، وعند الغضب، وعند المشاعر المختلفة، فدراسة الشّمائل النّبوية التي هي الآداب والأخلاق النّبوية هي التي تجعلنا نزداد حُبّاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

• الفائدة الثالثة: أيضاً معرفة الشّمائل النّبوية تجعلنا أقدر على اتباع النّبي صلى الله عليه وسلم. ونحن مأمورون باتباع النّبي ومأمورون بمحبة النّبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿قُل إِن كُنتُم تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلۡأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِى ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف ١٥٧] هذا طبعاً بشأن الأمم السّابقة، فاتّباع النّبي محمّد صلى الله عليه وسلم واجب، قبل وبعد بعثته صلّى الله عليه وسلم، وواجب على هذه الأمة أن تتّبعه.

وهنا وقفة: كيف نتبع النّبي صلى الله عليه وسلم؟ ما هي المجالات التي نتبعه فيه، هذا هو موضوع علم الشمائل النبوية، تبين لنا كيف كان النّبي يتصرف؟ كيف كان يفعل؟ كيف كان يتعامل؟ كيف كانت علاقته بالله؟ علاقته بأهل بيته؟ علاقته بأولاده؟ بأحفاده؟ بأبيه؟ وأمه؟ علاقاته أو تعاملاته وتصرفاته في الحياة العامة بشكلٍ عام، حينما نقرأ الشمائل النبوية والآداب المتعلقة بالنّبي محمد صلى الله عليه وسلم هذا يبعثنا على أن نتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل أفعاله، وكل أقواله وتصرفاته، وإلاّ فإننا إذا لم نقرأ ذلك ونتمثله نكون بعيدين عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، واتباعُه فرضٌ فرضه الله على هذه الأمّة.

• الفائدة الرّابعة: أنّ دراسة الشّمائل تزيدنا إيماناً بالنّبي عليه الصّلاة والسّلام، والمؤمن مأمورٌ بأن يؤمن بالغيب، والنّبي عليه الصّلاة والسّلام بالنّسبة لنا نحن الذين لم نره ولم نصْحَبه؛ الإيمان به

غيب كالإيمان بالله سبحانه وتعالى، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالحياة البرزخية، والإيمان بالجنّة والنّار، لكنّنا حينما نقرأ الشّمائل النّبوية التي تتحدث عن خصائص النّبي وأخلاقه وآدابه نقترب من النّبي عليه الصّلاة والسّلام، نقترب منه حقيقةً لا مجازاً؛ كأنّه يعيشُ معنا، وكأنّنا نعيش معه، كأنّنا نحدثه ويحدثنا، وحينما نقرأ أقواله في كتب السّنة النّبوية كأنّ شخصَ النّبي عليه الصّلاة والسّلام ماثلٌ أمامنا، موجودٌ بين أيدينا؛ لأنّ هذه الشّمائل وَصفت النّبي صلى الله عليه وسلم وصفاً دقيقاً، وصفاً مُفَصّلاً، وصفه به الصّحابة الكرام، وأهل بيته [رضوان الله عليهم]، فحينما نقترب من النّبي هذا يزيدنا إيماناً بالنّبي عليه الصّلاة والسّلام، ويوثق العلاقة بيننا وبينه صلى الله عليه وسلم، يوثق روابط الإيمان، روابط المحبة، وروابط التقدير لهذا النّبي الكريم.

• الفائدة الخامسة: أن نعرف الفضل لله سبحانه وتعالى الذي أنعم علينا ببعثة هذا النّبي، وبإرسال هذا الرّسول عليه الصّلاة والسّلام، فالرّسول هو نعمة من الله تعالى علينا وعلى النّاس أجمعين، لما نقرأ هذه الشمائل وتلك الأخلاق، ونعلم أنّ الله تعالى أرسل رسولاً على هذا المستوى من الأخلاق، من الفضائل، من المحامد، من الشّمائل، من الرّشد، من الحلم، من كل الأخلاق، لا شك أنّ هذا يزيدنا محبةً في الله سبحانه وتعالى، ويجعلنا كذلك نحمد الله عز وجل أن صيَّر لنا هذا النّبي الأمين رسولاً.

ومما زادني شرفا وتيها وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نبيا

اللّهم صلّ وسلّم على سيّدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.

• الفائدة السّادسة والأخيرة: هي أن دراسة الشّمائل تجعلنا نقف على الجهد الكبير الذي بذله علماء هذه الأمة وبذله أهل الحديث الذين هيّأهم الله تعالى؛ لأن يدوّنُوا كلّ شيءٍ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم،لم يتركوا صغيرةً ولا كبيرة،لم يتركوا قولاً ولا فعلاً،لم يتركوا تقريراً أونهياً أو أمراً أو أي شيءٍ؛ حتى وصف الشّخص الشّريف نُقِل إلينا من خلال هؤلاء العلماء عن الصّحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين، فهذا يجعلنا نزداد تقديراً لهؤلاء العلماء، ونحترمهم، ونجلهم، ونضعهم

في المكانة اللائقة بهم، وقد نقلوا لنا هذا الشرف، وهذه السّيرة العطرة رضي الله تعالى عن علمائنا أجمعين.

هذا العلم له فضلُ الفضل، طبعاً واضح أن فضل أي علم يتوقف على موضوع هذا العلم ما يدرس في هذا العلم، وما يدرس في هذا العلم هو: شخصُ النّبي صلى الله عليه وسلم، وأخلاقه وفضائله، ولا شك أنّ هذا فيه من الفوائد، ومن المكانة، ومن الشّرف، ومن السّؤدد ما فيه.

نسبة علم الشّمائل النّبوية:

نسبة هذا العلم؛ هل هذا العلم هو علم نقلي أم عقلي؟ علم غايات أم وسائل؟

لا شك أنه علمٌ نقلي؛ لأنّه موقوفٌ على النّقل، على ما نقله الصّحابة بروايتهم الصّحيحة الممحّصة عن النّبي عليه الصّلاة والسّلام، وتناقلته الأمة بعدهم جيلاً بعد جيل، وكذلك هو علم وسائل؛ لماذا علم وسائل؟ لأننا ندرسُ هذا العلم لكي تتحقق لنا بدراسته أهداف وغايات، وهي التي ذكرناها قبل قليل، الاقتداء بالنّبي عليه الصّلاة والسّلام، محبة النّبي، زيادة الإيمان به، الاعتراف بالفضل لله سبحانه وتعالى... إلى آخر كل هذه الفوائد، فهذه هي نسبة علم الشّمائل.

فضل علم الشمائل:

ليس هناك من فضل للشمائل النبوية ومدارستها ومطالعتها وقراءتها أفضل من أنه يتعلق بأعظم إنسان عرفته البشرية، إمام الأنبياء وسيد المرسلين، الذي صلى إماما بالأنبياء، فهو إمامهم، وهو سيد أولي العزم من الرسل الذين هم صفوة الأنبياء، وهؤلاء الأنبياء هم صفوة الله من البشرية، فالنبي صفوة من صفوة من صفوة.

ومطالعة هذه الشمائل إذا امتثلها المسلم فإنها تحقق له الاتباع والاقتداء، وهذا هو طريق محبة النبي صلى الله عليه وسلم، وبوابة الأجر العظيم والثواب الجزيل.

الواضع لعلم الشّمائل النّبوية:

من الذي وضع هذا العلم؟ في الحقيقة حينما نتحدث عن من وضع هذا العلم لا يمكن أن نَنسب وضع هذا العلم لواحدٍ بعينه، لأنّ هناك من العلماء الكثيرين جداً الذين أسهموا في هذا العلم، وهناك كتُبٌ لم تصلنا، لكن أبرزها ومن أوائلها "الشمائل المحمدية" لأبي عيسى الترمذي، رحمه الله تعالى، وسيأتي الحديث عنه.

الاسم:

عرفنا أنه علم الشمائل النبوية، وقد كان يسمى الشمائل النبوية، بابا من أبواب التصنيف في السنة النبوية، وفي السيرة النبوية، واليوم نطلق عليه "علمًا" بكل اطمئنان؛ لأنه أصبح مستقلا، له مصنفاته وتاريخه وتطوره، وإن كان ضمن علوم السنة النبوية، وعلوم السيرة النبوية.

الاستمداد:

أما الاستمداد؛ فاستُمد من سيرة صلى الله عليه وسلم وسنته الشريفة.

حكم الشّارع في تعلّم الشّمائل النبوية:

ما حكم الشارع في تعلم الشمائل النبوية ما هو الحكم التكليف علينا نحن الأمة المسلمة؟

لا أريد أن أفتئت القول وأقول إنّ معرفة هذا العلم واجبٌ على كلّ مسلم، ولكن لا ينزل حكم تعلم الشّمائل النبوية والآداب النّبوية عن المندوب أو المستحب استحباباً مؤكداً، سُنّة مؤكدة في أن يتعرف كلُّ مسلمٍ على رسوله صلى الله عليه وسلم، والذي بمعرفة شمائله وأخلاقه وسلوكه يتعرف المسلمون على دينهم.

مسائل علم الشمائل:

نتعرف إلى أخلاقه إلى آدابه إلى شمائله حتى يتمثل هذه بقدر ما يستطيع في واقعه، نحن نقول إن الموضوع هو: يعني شمائل النّبي عليه الصّلاة والسّلام، خصائص النّبي، أخلاق النّبي، آداب النّبي، لكن المسائل تبقى متعددة ومتنوعة، ومنها مئة وألف عنوان وردت في الموضوع، التي وصلنا إليها الآن؛ هي عبارة عن مسائل هذا العلم.

الشمائل النبوية في القرآن الكريم والسنة النبوية:

الشمائل في القرآن الكريم:

الحديث عن النّبي عليه الصّلاة والسّلام وعن أخلاقه، وعن قيمته، وعن طبيعته مبثوثٌ في آيات القرآن الكريم قبل وروده عن الصحابة وروايتهم لذلك كله؛ مثلاً مما ورد في القرآن الكريم عن النّبي محمّد صلى الله عليه وسلم قوله تعالى في سورة القلم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم ٤] وأيضاً قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا (٢١)﴾ [الأحزاب ٢١] وقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِم ءَايَتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَلٍ مُّبِينٍ (٢)﴾ [الجمعة ١-٢]

وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران ١٥٩] الرّحمة من الله للنّبي صلى الله عليه وسلم هي التي جعلت النبي يلين لأصحابه والمسلمين، وفي آخر آيات سورة التوبة يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة ١٢٨]، وذكر القرآن الكريم حياء النّبي صلى الله عليه وسلم في سورة الأحزاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ

ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب ٥٣] قال الله تعالى أيضاً في سورة آل عمران ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ [آل عمران ١٥٣]، والله تعالى يصف نفسية النّبي هنا بأنه يحزن على ألا يدخل الناسُ في الإسلام، وألاّ ينتقلوا من دائرة النّار إلى دائرة الجنة، قال تعالى: ﴿طسٓمٓ (١) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ(٣)﴾ [الشعراء ١-٣] باخعٌ نفسك يعني: قاتلٌ نفسَك غمّا، أو مهلكها، أو معذبها، وفي سورة الكهف نفس المعنى ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾ [الكهف ٦]، وقال تعالى ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر ٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠)﴾ [النمل ٧٠] والآية الجامعة لكلّ هذا قول الله تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء ١٠٦] فلهذا مَنْ أراد أن يؤلف في هذا العلم علم الشّمائل النّبوية لا يسعه أن يتجاوز القرآن الكريم، ولا ما ورد في هذه الآيات أو في هذا القرآن العظيم من آيات تبين أخلاق النّبي، وشخص النّبي، ومشاعر النّبي صلّى الله عليه وسلّم.

الشمائل في مدونات السنة:

ثمّ بعد ذلك قامت ثلةٌ مباركة من علماء الأمّة تدوّن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ففي كلّ كتُب السّنّة، كتب الأصول لاسيما الصّحيحين والسّنن الأربعة وموطأ مالك ومسند أحمد، وسنن الدّارمي، والطّبراني بمعاجمه، إلى السّيوطي نجد أبواباً مُستقلّة عن فضائل النّبي، عن خصائص النّبي، عن أخلاق النّبي، عن آداب النّبي صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ وجدنا من العلماء من تحدث في سيرة النّبي صلى الله عليه وسلّم من قديم من أيّام الإمام ابن إسحاق، أئمة المدونات التاريخية الكبرى؛ من أمثال الإمام ابن الأثير في كتاب "الكامل"، وابن كثير في "البداية والنهاية"، والعلماء الذين تحدثوا عن النّبي صلى الله عليه وسلم في "التراجم" مثل الإمام الذهبي، وعدد كبير من الأئمة كانوا يُلحقون الحديث عن "شمائل النّبي وأخلاقه" بعدما يفرغ من الحديث عن سيرة

النّبي محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم، وهذا ما فعله "الإمام ابن كثير"، بعدما فرغ من السّيرة النبوية جاء بملحق يتحدث فيه عن "الشمائل" وعن "الدلائل" وعن "الخصائص"، وعن "المعجزات" للنبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ العلماء أنفسهم قد أفردوا الشّمائل بالتّصنيف، وبالكتابة، وبالرّواية، فصارت لها مؤلفاتٌ مستقلة بعيداً عن "السّيرة النّبوية"، وبعيداً عن مُدوّنات الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم.

تأريخ علم الشّمائل النّبوية ومصنفاته:

المصنفون من القدماء:

أوّلُ من كتب في هذا العلم هو الإمام أبو البُختري وهب بن وهب الأسدي، توفي سنة ٢٠٠ هجرية، وكتب كتاباً بعنوان: "صفة النّبي صلى الله عليه وسلّم"؛ هذا الكتاب لم يصلنا في الحقيقة، ولكن ذكره الذين يذكرون الكتب من أمثال "ابن النّديم"، و"حاجي خليفة"، وغيرهما.

تلى أبا البختري، أبو علي بن محمد المدائني، توفي ٢٢٤ هجرية، في كتابه أيضاً "صفة النّبي صلى الله عليه وسلّم"، نفس عنوان أبي البختري.

ثم محمد بن عبد الله الورّاق توفي سنة ٢٤٩ هجرية في كتابه "أخلاق النّبي".

ثم داوود بن علي الأصبهاني؛ وهو رأس المذهب الظاهري، وشيخ الإمام ابن حزم.

ثم الحافظ أبو عيسى محمد بن سوْرة التّرمذي المتوفى سنة ٢٧٩ هجرية، في كتابه المشهور "الشمائل"، وسيكون له بإذن الله حديثٌ مستقل باعتباره أول ما وصل إلينا.

ثم جاء أبو علي محمد بن هارون بن شعيب الأنصاري توفي ٣٥٣ هجرية، وهو في القرن الرابع الهجري في كتابه "صفة النّبي صلى الله عليه وسلم"، و"صفة أخلاقه وسيرته، وأدبه، وخفض جناحه".

ثم أبو بكر محمد بن علي القفّال الشّاشي المتوفى سنة ٣٦٥ هجرية في كتاب "شمائل النّبوة".

ثم عبد الله بن محمد بن حيان الأصبهاني المتوفى سنة ٣٦٩ هجرية في كتابه "أخلاق النّبي وآدابه"، وهذا مطبوعٌ ومُتَداولٌ أيضاً.

ثم أبو سعيد عبد الملك بن محمد النّيسابوري المتوفي سنة ٤٠٦هجرية في كتابه "شرف المصطفى" اسمه الحقيقي هذا "شرف المصطفى"، وطبع أكثر من طبعة، وبأكثر من تحقيق.

ثم انتقلنا إلى بداية القرن الخامس الهجري، وجاء أبو العباس جعفر بن محمد بن المعتز المستوى، وهذا الكتاب غير موجود، توفي صاحبه سنة ٤٣٢ هجرية، في كتابه "شمائل النّبي".

ثم في القرن السّادس الهجري تتتابع التآليف في هذا، ومنهم أبو بكر محمد بن فرحان التركي البغدادي توفي سنة ٥١٣ هجرية له كتاب بعنوان: "الشمائل".

ثم كتاب "الأنوار في شمائل النّبي المختار"، وهو من أعظم الكتب ومن أشملها، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي الشافعي صاحب التّفسير المشهور متوفى سنة ٥١٦ هجرية.

ثم جاء "كتاب الشّفا" وهو من الكتب المشهورة أيضاً، وعليه جهود كبيرة، كما سنتعرض له لاحقاً إن شاء الله، "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" للقاضي عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هجرية.

ثم كتاب "الشّمائل بالنور الساطع الكامل في شمال النّبي وسيرته" لأبي الحسن علي بن محمد بن إبراهيم الفزاري المعروف بابن المقري الغرناطي متوفى سنة ٥٥٢ هجرية.

وكتاب "زواهر الأنوار وبواهر ذوي البصائر والاستبصار في شمائل النّبي المختار صلى الله عليه وسلّم" لعلي بن إبراهيم بن عبد الرّحمن بن الضّحاك الفزاري، ويعرف بابن النفري توفي سنة ٥٧٥ هجرية؛ وهذا الرّجل له شرح للحكم العطائية.

وكتاب "الوفاء بأحوال المصطفى صلى الله عليه وسلم" للإمام ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هجرية.

ثم "شمائل الرسول ودلائل نبوته وخصائصه" للإمام ابن كثير المتوفى سنة ٥٧٧ هجرية.

ثم "من هدي الرّسول" المسمى "سفر السّعادة" لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي المتوفى سنة ٨١٦ هجرية.

ثم الإمام السيوطي وكتاباه "الخصائص الكبرى" و"الخصائص الصغرى"؛ ولعله اختصار للخصائص الكبرى مع بعض الزيادة، للسّيوطي المتوفى سنة ٩١١ هجرية.

ثم "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية" للإمام القسطلاني، وله "شرح على البخاري" توفي سنة ٩٢٣ هجرية.

وهذا السرد التاريخي يتضح فيه الاهتمام الدائم بهذا الباب بما يعني أنه قد ظلّ عبر هذه القرون: القرن الثاني الهجري، الثالث، الرابع، الخامس، السادس، السّابع، الثامن، التّاسع، العاشر، كما نرى.

المصنفون من المعاصرين:

ظل الاهتمام مستمرا حتى وصل الأمر إلى المعاصرين، والمشتغلين والمهتمين بالسنة النبوية، نذكر مثالين فقط من الأمثلة المعاصرة:

الأول: كتاب "مِن مَعين الشّمائل"( ) لفضيلة الشّيخ صالح أحمد الشّامي الذي هو صاحب كتاب "معالم السنّة النبوية" في ثلاث مجلدات، مطبوع في دار القلم، وهذا كتاب رائع جداً أعني: "مِن مَعين الشّمائل" كتاب معاصر بلغة سهلة، بتبويب رائع، فيه عشرة مقاصد، وتحت كل مقصد فصول، وتحت كل فصلٍ أحاديث تبين "شمائل النّبي صلى الله عليه وسلم"، وهذه الفصول تجاوزت سبعين فصلاً، كلّ فصلٍ من هذه الفصول تحته أحاديث كما ذكرنا.

الثاني: ويعتبر أجمع ما كتب في هذا الباب وأوفاه موسوعة معاصرة بعنوان: "موسوعة أحاديث الشمائل النبوية الشريفة"، لفضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور همام عبد الرّحيم سعيد، وابنه الدكتور محمد همام سعيد؛ جاءت في مجلدين كبيرين، المجلد الأول تجاوز ألفا ومائتي صفحة، والمجلد الثاني حوالي تسعمائة صفحة، بما جاء مجمله في (٢٢٥٣) صفحة، وهذه الموسوعة جمعت من خمسين كتابا من كتب السنة، وانتقيت نصوصها من مئة ألف حديث، وهي في الحقيقة موسوعة لا غنى لأي مسلمٍ عنها، ولا عن أن يقتنيها( ).

بلغت الأحاديث العامة، والكتب التي تضمنتها هذه الموسوعة من الشمائل الخاصة قرابة خمسين كتاباً من كتب الحديث الأصلي "خمسون كتاباً"، كانت هي مراجع هذه الموسوعة، جمعت هذه الموسوعة قرابة تسعين ألف حديث تضمّنتها، كلها في أخلاق النّبي صلى الله عليه وسلّم وآدابه

وشمائله، يقول المؤلف: "ومع هذا فإننا لا ندعي الاستيعاب"؛ سبحان الله، ويقول أيضاً: "قد توصلنا إلى قائمةٍ تصنيفية اشتملت على أكثر من ألف ومئة عنوان"، ألف ومئة عنوان، يعني ألف ومئة فصل، منها ما ورد في حلم النّبي، في لباس النّبي، في زي النّبي، في طعام النّبي، ألف ومئة عنوان في هذه الموسوعة؛ كلّ عنوانٍ منها يتضمن أحاديثَ تحته، فهذه الموسوعة آخر ما صدر عن الشّمائل فيما أعلم، وهي أوفى عملٍ وأشمله مما صدر في الشّمائل النّبوية .. وهذا ما يتعلق بتاريخ علم الشمائل النبوية.

*****

كانت هذه مقدمة لازمة آثرتُ أن أتحدث فيها معكم، لكيْ نقفَ على أهمية الشّمائل، وعلى عظمة الشّمائل، وعلى أنّ هذا هو من علوم الشّريعة، ومن علوم السّنة النّبوية، ومن علوم السيرة المطهرة.

كتاب "الشّمائل المحمدية والخصائص المصطفوية" ومؤلفه:

الآن حان الوقت أن ندلف إلى أول كتابٍ، وهو يعتبر أول كتاب وصلنا في الحقيقة من الكتب، وهو كتاب "الشّمائل المحمدية والخصائل المصطفوية" للإمام أبي عيسى محمد بن سَوْرَة الترمذي المولود سنة ٢٠٩ هجرية، والمتوفى سنة ٢٧٩ هجرية، يعني في القرن الثالث الهجري، رحمه الله تعالى، ورضي عنه أرضاه.

عن الإمام الترمذي:

في الحقيقة نحن مع "أبي عيسى"، أنا شخصياً على المستوى الشخصي أحب أبا عيسى، وأشعر أنّه قريبٌ من نفسي لما لمست فيه من رقّة، ومن زهدٍ، ومن ورعٍ، وكلُّ أئمتنا كانوا كذلك، لكن هذا الرّجل بالذّات، في الحقيقة فيه شيءٌ لله، هو الإمام الترمذي، ولابد أن نتحدث أيضاً عن "الإمام الترمذي" وعن هذا الكتاب بشكلٍ عام، وأول ما نبدأ به هو ترجمة لهذا الإمام من عدّة كتب؛ أول ما نذكره لكم هو ما قاله الإمام ابن الأثير في كتابه "الكامل" لما جاء يؤرخ في المجلد

الثالث من كتاب "الكامل"، وهو يتحدث قال: "ثمّ دخلت سنة تسعٍ وسبعين ومائتين" ذكر بعض الأحداث التّاريخية، ثم بعد ذلك قال: "وَفِيهَا تُوُفِّيَ أَبُو عِيسَى مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَى بْنِ سَوْرَةَ التِّرْمِذِيُّ السُّلَمِيُّ بِتِرْمِذَ [ترمذ هذه الآن في شمال إيران] فِي رَجَبٍ، وَكَانَ إِمَامًا حَافِظًا لَهُ تَصَانِيفُ حَسَنَةٌ، مِنْهَا: " الْجَامِعُ الْكَبِيرُ" فِي الْحَدِيثِ، وَهُوَ أَحْسَنُ الْكُتُبِ، وَكَانَ ضَرِيرًا( )، هذا كلام ابن الأثير قال: "الْجَامِعُ الْكَبِيرُ" فِي الْحَدِيثِ، وَهُوَ أَحْسَنُ الْكُتُبِ المعروف بـ "سنن الترمذي"، وكان ضريراً، وقد اختلف النّاس هل وُلد وهو ضرير أم طرأ له بعد ذلك؟ والرّاجح أنه وُلد بصيراً، وصار ضريراً بعد ذلك، بعدما عاش سنين عديدة [انتهى كلامه ابن الأثير].

الإمام ابن كثير في البداية والنهاية له كلام مهم عن الإمام الترمذي يقول ابن كثير: "وَاسْمُهُ مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَى بْنِ سَوْرَةَ بْنِ مُوسَى بْنِ الضَّحَّاكِ، وَقِيلَ مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَى بْنِ يَزِيدَ بْنِ سَوْرَةَ بْنِ السَّكَنِ، وَيُقَالُ مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَى بْنِ سَوْرَةَ بْنِ شداد بن عيسى السُّلمي الترمذي الضرير، يقال إِنَّهُ وُلِدَ أَكْمَهَ، وَهُوَ أَحَدُ أَئِمَّةِ هَذَا الشَّأْنِ فِي زَمَانِهِ [طبعاً الإمام الترمذي تلميذ الإمام البخاري، وتلميذ الإمام مسلم، والإمام البخاري له حديثٌ رواه عن الترمذي؛ وهذا ما يعرف في الصّنعة الحديثية برواية الأكابر عن الأصاغر]، وَهُوَ أَحَدُ أَئِمَّةِ هَذَا الشَّأْنِ فِي زَمَانِهِ [يعني: من أئمة السنّة النبوية]، وَلَهُ الْمُصَنَّفَاتُ الْمَشْهُورَةُ، مِنْهَا الجامع، والشمائل، وأسماء الصَّحَابَةِ وَغَيْرُ ذَلِكَ. وَكِتَابُ الْجَامِعِ أَحَدُ الْكُتُبِ السِّتَّةِ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا الْعُلَمَاءُ فِي سَائِرِ الْآفَاقِ"( ).

الكتب الستّ هي: صحيح البخاري وصحيح مسلم، وسنن الترمذي، وسنن أبي داود، وسنن ابن ماجه، وسنن النّسائي .. هذه هي "الأصول الستّة"؛ الجوامع في السنة النبوية.

الحافظ ابن كثير يقول( ): "رَوَى عَنْهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ منهم محمد بن إسماعيل البخاري في الصَّحِيحِ، وَالْهَيْثَمُ بْنُ كُلَيْبٍ الشَّاشِيُّ صَاحِبُ الْمُسْنَدِ، ومحمد بْنِ مَحْبُوبٍ الْمَحْبُوبِيُّ، رَاوِي الْجَامِعِ عَنْهُ، وَمُحَمَّدُ بن المنذر بن شكر، قَالَ أَبُو يَعْلَى الْخَلِيلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْخَلِيلِيُّ الْقَزْوِينِيُّ فِي كِتَابِهِ عُلُومِ الْحَدِيثِ: مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَى بْنِ سَوْرَةَ بْنِ شَدَّادٍ الْحَافِظُ متفق عليه، له كتاب في: السنن وكتاب في الجرح والتعديل، روى عنه أبو محبوب والأجلاء، وهو مشهور بالأمانة والإمامة وَالْعِلْمِ، ذكره الحافظ أبو حاتم بن حيان فِي الثِّقَاتِ، فَقَالَ: "كَانَ مِمَّنْ جَمَعَ وَصَنَّفَ وَحَفِظَ وَذَاكَرَ"، قَالَ

التِّرْمِذِيُّ: "كَتَبَ عَنِّي الْبُخَارِيُّ حَدِيثَ عَطِيَّةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِعَلِيٍّ: «لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ يُجْنِبُ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ غيري وغيرك»، وروى ابن يقظة فِي تَقْيِيدِهِ [يعني التّرمذي، وهنا سيتحدث عن الجامع جامع الترمذي الذي هو سنن الترمذي يقول]: عَنِ التِّرْمِذِيِّ أَنَّهُ قَالَ: "صَنَّفْتُ هذا المسند الصّحيح وعرضته عَلَى عُلَمَاءِ الْحِجَازِ فَرَضَوا بِهِ، وَعَرَضْتُهُ عَلَى عُلَمَاءِ الْعِرَاقِ فَرَضوا بِهِ، وَعَرَضْتُهُ عَلَى عُلَمَاءِ خُرَاسَانَ فَرَضُوا بِهِ، وَمَنْ كَانَ فِي بَيْتِهِ هذا الكتاب فكأنما في بيته نبي ينطق، وفي رواية يَتَكَلَّمُ، [من يحُز سنن الترمذي، وجامع الترمذي صاحب الكتاب هو الذي يقول هذا، من كان في بيته هذا الكتاب فكأنما في بيته نبيٌّ يتكلم].

أيضاً الحافظ ابن كثير يقول: "والّذي يظهر من حال الترمذي أَنَّهُ إِنَّمَا طَرَأَ عَلَيْهِ الْعَمَى بَعْدَ أَنْ رَحَلَ وَسَمِعَ وَكَتَبَ، وَذَاكَرَ وَنَاظَرَ وَصَنَّفَ، ثُمَّ اتفق موته في بلده في رجب منها على الصحيح المشهور، والله أعلم". هذا ما قاله الإمامان ابن الأثير وابن كثير.

أيضاً للإمام الذهبي قول فيه، واخترت لكم هذا الكتاب "نزهة الفضلاء في تهذيب سير أعلام النّبلاء"( )، هذّبه فضيلة الشيخ الدّكتور محمد بن موسى الشريف [فكّ الله تعالى أسره]، تحدث عن الإمام الترمذي في صفحة تقريباً، حيثُ ذكر اسمه وما له من مؤلفات، وأورد أقوالاً كثيرةً جداً عنه، قال الحاكم: سمعت عمر بن علك يقول: "مات البخاري فلم يخلف بخراسان مثل "أبي عيسى" في العلم والحفظ والورع والزّهد، بكى حتى عميَ وبقي ضريراً"، [وهذا فيما أحسب سر محبة الإمام التّرمذي، وشيوع كتبه، وتداولها بين الناس، كان يبكي كثيراً من خشية الله حتى عميَ من البكاء من خشية الله، رضي الله تعالى عنه].

أبو عيسى قال: "كنتُ في طريقٍ فكتبتُ جزأين من حديث شيخ، فوجدته فسألته وأنا أظن أن الجزأين معي، فسألته فأجابني فإذا معي جزأ بياض، فبقي يقرأ عليّ من لفظه، فنظر فرأى في يدي ورقاً بياضاً، فقال: أما تستحي مني؟ فأعلمته بأمري وقلتُ أحفظه كله، قال: اقرأ فقرأته عليه فلم يصدّقني، وقال: استظهرت قبل أن تجيء، [يعني: قبل أن تجيء إليَّ حفِظتَ الحديث]، فقلتُ: حدّثني بغيره، فحدثني بغيره، فحدّثني بأربعين حديثاً، وقال: هات، فأعدتها عليه ما أخطأت في حرف، [عدم الخطأ هذا من أول اللّقاء أو من أول كلمة، يدلُّ على مدى صفاء القلب، ومدى

صفاء العقل، والذهن، ومدى حضور وحِدّة ودقّة الحافظة، وهذا لا يتأتّى إلا بطاعة الله تعالى، والبعد عن المعاصي].

وقال الإمام الذهبي "في الجامع [يعني في جامع سنن الترمذي] علمٌ نافع، وفوائد غزيرة، ورؤوس المسائل، وهو أحد أصول الإسلام، لولا ما كدّره بأحاديث واهية بعضها كثيرٌ منها في الفضائل"، كثير من الأحاديث الواهية جاءت في الفضائل يعني لا يضره شيء، قلتُ [يعني الإمام الذهبي] جامعه قاضٍ له بإمامته، وحفظه وفقهه، ولكن يترخص في قول الأحاديث، ولا يشدّد، ونفسه في التّضعيف رخوٌ. ويقول المنصور لابن طاهر: سمعتُ أبا إسماعيل شيخ الإسلام [الهروي] يقول: "جامع الترمذي أنفعُ من كتاب البخاري ومسلم؛ لأنهما لا يقف منهما إلا المتبحر العالم، والجامع يصل إلى فائدته كل أحد"( )، هذا ما يتعلق بالإمام الترمذي.

عن كتاب الشمائل المحمدية للترمذي:

يعتبر كتاب "الشمائل النبوية والخصائص المصطفوية" من أجمل ما أُلّف في الشّمائل النبوية، ومن أعظم ما وصلنا في بابه، ويكفي فقط أن نعرف اهتمام الأمّة بهذا الكتاب، وهذه الطبعة التي بين أيدينا بتحقيق الأستاذ "عبده علي كوشك"، وفي نطق آخر "كوجك" بالجيم، وقدّم له الشيخ "عبد القادر الأرناؤوط" [رحمه الله تعالى].

اهتمام الأمة بكتاب الشمائل للترمذي شرحًا واختصارًا:

وقد أحصى الأستاذ "عبده علي كوشك" اثنين وسبعين شرحاً لهذا الكتاب، وهو لم يأت على كل الشّروح، وإنما هذا ما وقف عليه اثنين وسبعين شرحاً لشمائل الترمذي؛ كما أحصى خمسة عشر مختصراً [هناك ١٥ مختصر] اختصر بها هذا الكتاب؛ الشّمائل المحمدية للإمام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي رحمه الله تعالى، حسبنا فقط أن نقرأ بعض الشروح لهذا الكتاب في مقدمة المحقق ودراسته عن الكتاب( ).

وهذا الكتاب ضمّ بين دفتيه [٤٠٢ حديث]، وزعت على ستةٍ وخمسين باباً، طبعاً في موسوعة الشمائل ألف ومائة، هنا في شمائل الترمذي ستةٌ وخمسون باباً لكل بابٍ عنوان تم اختياره بدقة، وأخرج تحته أحاديث أو أكثر يخدم الغرض من الترجمة.

شهادات العلماء بحق شمائل الترمذي:

نمرّ الآن على بعض الشّهادات المتعلقة به، يقول المحقق: "للترمذي شرف السّبق في جمع شمائله في مصنفٍ مفرد، وكانت قبله مبثوثة في تضاعيف الصّحاح"، وهذا الكلام غير مُسلَّم لأنّنا ذكرنا كتباً قبل الإمام الترمذي كتبًا.

أحد شرّاح الشّمائل المحمدية للتّنبيه؛ الإمام الملا القاري يقول في كتابه: "جمع الوسائل في شرح الشمائل"، قال: "ومن أحسن ما صنّف في شمائله وأخلاقه صلى الله عليه وسلم كتاب التّرمذي، المختصر الجامع في سيرته على الوجه الأتم، بحيث إنّ مطالع هذا الكتاب كان يطالع طلعة ذلك الجناب، يعني: مَن يطالع هذا الكتاب كأنّه يطالع طلعة هذا الجناب، كأنما يطالع وجه النّبي صلى الله عليه وسلم وجسده الشريف، ويرى محاسنه الشّريفة في كل باب( ).

العلامة الشيخ محمد عبد الرؤوف المناوي له أيضاً شرح للشّمائل يقول فيه: "وعالم الدّراية الإمام الترمذي جعل الله قبره روضةً عَرفها أطيب من المسك الشذّي، [عَرفها يعني رائحتها] كتابٌ وحيدٌ في بابه، فريدٌ في تركيبه واستيعابه، سلك فيه عد ذلك الكتاب من المواهب وطار في المشارق والمغارب"( ).

الإمام الشيخ العالم الفقير محمد ابن قاسم ابن محمد جسوس المتوفى سنة١٠٨٢ له شرح للشمائل يقول فيه: "وبعدُ، فلمّا كان كتاب الشّمائل من أحسن ما ألف في محاسن الوسائل، ومنبع الفضائل، وكان الاشتغال به خدمةً لشفيع الخلائق الأواخر منهم والأوائل، ووسيلةً إلى امتلاء القلوب بتعظيمه ومحبته، وطريقا إلى اتّباع طريقته وسنته، ومعيناً على الفوز بمشاهدة كريم طلعته .. قَيَّدتُ عليه عند إقرائه وقراءاته فوائد وتحقيقات وتنبيهات بينات تغني الناظر فيه عن كثير من المجلدات"( ).

شيخ الأزهر العالم الفقيه إبراهيم الباجوري توفى سنة ألف ومائتين وسبع وسبعين هجرية، له تعليقات وشرح على الشمائل أيضاً اسمها: "المواهب اللدنية على الشّمائل المحمدية"، يقول رحمه الله تعالى: "إن كتاب الشمائل لعالم الرّواية وعالم الدّراية الإمام التّرمذي، كتابٌ وحيدٌ في بابه، فريدٌ في ترتيبه واستيعابه، لم يأت له أحدٌ بمماثلٍ ولا بمشابه، سلك فيه منهجاً بديعًا، ورصّعه بعيون الأخبار وفنون الآثار ترصيعًا، حتّى عُدّ ذلك الكتاب من المواهب، وطار في المشارق والمغارب". العلامة أحمد شاكر في مقدمة الجامع الصحيح وهو يعدّد مؤلفات الترمذي قال: "وكتاب الشّمائل، وهو كتابٌ نفيسٌ معروف مشهورٌ"( ).

يتبين من هذا أن العلماء اهتموا بهذا الكتاب، اهتماما كبيرا، والكلام موجود في "مقدمة الكتاب" من الصفحة التاسعة حتى الصّفحة التاسعة عشرة؛ [يعني: عشر صفحات]، ذكر فيها شروح الترمذي، كما قلنا أحصى اثنين وسبعين شرحاً، أمّا المختصرات فقد عدَّ منها خمسة عشر مختصراً آخرها "منية السائل خلاصة الشمائل" للعلامة محمد بن عبد الحي الكتاني، وللشّيخ الألباني مختصر مفيد، ومحمود سامي بيك مختصر، والفاسي المالكي مختصر، ومحمد بن جعفر الكتاني مختصر، والفقيه محمد بن مصطفى البكري الفلسطيني مختصر، ومحمد بن خليل الحكيم بروكلمان ذكره بروكلمان، وأيضاً "العطر الشّذي في شرح مختصر شمائل الترمذي" للشّيخ الشّرنوبي.

وهكذا، فإن كثيرا من النّاس اهتموا به، وهذا يدلك على عظمة هذا الكتاب، وعلى قيمته وسبقه، وعلى فرادته أهميته، وهذا كلّه جعله محلّ اهتمام، ومحل اعتناء، ومحلّ رعاية، وأصبح من الشّهرة بمكان، يتحدث المؤلف أو المحقّق بعد ذلك عن [رجال الشّمائل] "الرّجال" يعني بذلك رجال الشّمائل، يعني بذلك الأسانيد التي وردت في أحاديث هذا الكتاب، والتي اعتمد الإمام التّرمذي الرّواية عنها، وطبعاً هذا الكتاب ترجم إلى غير العربية، ترجمة تركية وأوردية، وعدد آخر من اللغات، اعتمد المحقق أربع نسخ خطّية، حقّق بها هذا الكتاب، ثم أورد ترجمةً موجزةً للمؤلّف.

سند الإمام الترمذي [رحمه الله تعالى] في رواية الشّمائل:

يقول الإمام الترمذي [رحمه الله تعالى] : "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلّم:

(أخبرنا الشيخ الإمام الحافظ الضابط الزاهد الورع عز الدين أبو محمد عبد المؤمن بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر بن العجمي قراءة عليه ونحن نسمع بحلب "حرسها الله" في ثاني عشر شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة قال:

أخبرنا الشيخ الإمام كمال الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد القاهر بن النصيبي قراءة عليه في سنة ثمان وثمانين وستمائة قال:

أخبرنا الشيخ الإمام العالم الحافظ الزاهد الورع الشريف افتخار الدين أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل بن عبد المطلب الهاشمي قراءة عليه بحلب في عشرين شهر رجب من سنة ثلاث عشرة وستمائة قال:

أخبرنا الأديب أبو حفص عمر بن علي بن أبي الحسين الكرابيسي –يعرف بشيخ– والشيخ الصاين أبو علي الحسن بن بشير بن عبد الله النقاش قراءة عليهما في يوم الثلاثاء سادس جمادى الأولى سنة ست وأربعين وخمس مئة بمدينة بلخ ، والشيخ الإمام أبو شجاع عمر بن محمد بن عبد الله البسطامي قراءة عليه ببلخ أيضا، والشيخ الزاهد أبو الفتح عبد الرشيد بن النعمان بن عبد الرزّاق الولوالجي لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة خمس وخمس مئة بسمرقند قالوا جميعا:

أخبرنا الدهقان أبو القاسم أحمد بن محمد بن محمد البلخي قراءة عليه قال:

أخبرنا الشيخ الشريف أبو القاسم علي [بن محمد] بن أحمد الخزاعي قال:

أخبرنا الأديب أبو سعد الهيثم بن كليب بن سريج بن معقل الشاشي قال:

أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الحافظ الترمذي). انتهى السند( ).

***

رحم الله الإمام الترمذي، وجزاه عن وعن ديننا ورسولنا أحسن الجزاء، ونفعنا بما ترك من علم نافع وعمل صالح، وجمعنا به على حوض المصطفى صلى الله عليه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.

خاتمة البحث ونتائجه:

انتهى هذا البحث إلى أن الشمائل النبوية ليست مجرد مبحث من مباحث السيرة أو السنة، وإنما يمكن أن يكون علما مستقلا، وفنا قائما بذاته من فنون السيرة أو السنة، وليس هذا بمستغرب؛ فقد كانت السيرة نفسها جزءا من كتب السنة، وكان التفسير جزءا من كتب السنة، ثم استقل هذا وذاك حتى صار علما مستقلا، وآن الأوان للشمائل النبوية أن تكون علما مستقلا.

والذي يعزز هذا هو أن المبادئ العشرة للشمائل النبوية قائمة ومستوفاة كما سبق بيانه، وله كذلك تاريخه، مما يعزز تأكيد هذه الفرضية التي استهدفناها، وهي أن المشاءل النبوية علما مستقلا.

التوصيات:

أهمية التصنيف في الشمائل النبوية بوصفها علما له مبادئه وقضاياه وتاريخه وأعلامه، وجعل الشمائل مادة مستقلة في المعاهد الشرعية والكليات التي تدرس السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي والأخلاق الإسلامية.

المراجع:

القرآن الكريم.

ابن الأثير؛ أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ) ،الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

ابن كثير؛ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، دار الفكر عام النشر: ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٦م.

الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، السلمي الترمذي، أبو عيسى (ت: ٢٧٩هـ)، الشمائل النبوية، تحقيق: محمد علي كوشك، وقف مكتبة نظام يعقوبي الخاصة، مملكة البحرين، الطبعة الخامسة، ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م.

الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، السلمي الترمذي، أبو عيسى (ت: ٢٧٩هـ)، الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، بتحقيق وشرح أحمد محمد شاكر القاضي الشرعي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الغورية، القاهرة، الطبعة الأول، ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م.

جسوس، محمد بن قاسم جسوس (ت: ١١٨٢هـ)، الفوائد الجليلة البهية على الشمائل المحمدية، مطبعة الجمالية، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٣٠هـ.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

الشامي، صالح أحمد الشامي، من معين الشمائل، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

الشريف، محمد بن موسى الشريف، نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء، دار الأندلس الخضراء، جدة، السعودية، ودار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة العاشرة، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

القاري، نور الدين ملا علي بن سلطان محمد الهروي القاري (ت: ١٠١٤هـ)، جمع الوسائل في شرح الشمائل، المطبعة الشرفية، مصر، طبع على نفقة مصطفى البابي الحلبي وإخوته، د.ت. د.ت.

المناوي، محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي، (ت: ١٠٣١هـ)، شرح الشمائل على هامش جمع الوسائل للقاري، المطبعة الشرفية، مصر، طبع على نفقة مصطفى البابي الحلبي وإخوته، د.ت. د.ت.

همام عبد الرحيم سعيد - محمد همام عبد الرحيم، موسوعة أحاديث الشمائل النبوية الشريفة، مجلة البيان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.